حفلة تكريم

وجه حضرة صاحب العزة صادق جوهر بك ناظر دار العلوم، وهيئة التدريس بها، الدعوة لحضور حفلة الشاى التى أقيمت بفناء الدار فى تمام الساعة السادسة بعد ظهر يوم السبت ٢٦ من يونية سنة ١٩٣٧، لتكريم حضرات الأساتذة: الشيخ محمود أحمد البطراوى، وأحمد التونى افندى، والشيخ على حسنين؛ لمناسبة اعتزالهم الخدمة.

وقد أم الدار أساتذتها، ونخبة من خريجيها، وطائفة من كرام المدعوين، وتوسط الحفل حضرة صاحب العزة ناظر دار العلوم، وإلى جانبه المحتفل بهم، وحولهم المدعوون من الزملاء والأصدقاء. ثم قدم الشاى والحلوى، وأديرت المرطبات المثلجة؛ وأخذ الحاضرون يتجاذبون أطراف الحديث، وقد صفا الجو، ورق الهواء، وانحدرت الشمس إلى مخبئها، وأظلت الجميع تلك الأشجار الباسقة الوارفة الظلال، التى شاهدها جيل من أبناء دار العلوم فى مبدإ غرسها، حين كانت دانية الغصون، ثم مرت عليها السنون فسمت فى فناء الدار، تطل على أبناء دار العلوم، الذين نعموا بظلها فى إبان نموها.

وحين شرب الحاضرون الشاى هنيئا، قام حضرة صاحب العزة صادق بك جوهر، فرحب بالحاضرين، وشكرلهم تلبيتهم الدعوة؛ ثم هنأ الأساتذة الثلاثة بما لهم من الماضى المجيد، الحافل بالجد والإخلاص فى العمل، وبما أحرزوا من مكانة فى القلوب، وقال: إن اعتزالهم الخدمة إنما هو انتقال من الجو المحدود إلى الحياة العامة، حيث يتسع المجال لجهودهم الشاملة فى خدمة اللغة والأدب. ثم شكر الحاضرين، وتمنى للمحتفل بهم حياة سعيدة طيبة.

* * *

ثم قام الأستاذ زكى المهندس، أستاذ التربية بدار العلوم فقال:

إننى لا أكاد أصدق أن ما أرى من تكريم هؤلاء الفرسان الثلاثة هو لمناسبة

إحالتهم إلى المعاش . وذلك أن عهدنا بمن يحالون إليه أن يتجلى على وجوههم عراك الزمن : من انحناء الظهر ، وتهدم الجسم ، ومظاهر الضعف وكبر السن . ولكني أرى فى فرسانا الثلاثة غير ذلك ، أرى أجساما قوية ، وقلوبا فتية ، وصحة تترقرق فى محياهم ، وهمة دونها همة الشباب ، فيحملنى ذلك على الشك فى أنهم بلغوا السن القانونية حقا ، وأنهم قد أحيلوا إلى المعاش لبلوغهم سن الستين .

وإنى أهنئهم على خروجهم من الخدمة فى صحة سابغة ، وأسأل الله أن يديمها عليهم .

ويقينى أنهم إذ يغادرون العمل الرسمى فى التعليم ، إنما يخرجون من دائرة محدودة ، إلى دائرة واسعة ؛ حيث يزداد نفعهم ، وتثمر جهودهم ، وتجنى دار العلوم وأبناؤها من تجاربهم أينع الثمرات ، وأسأل الله لهم حياة طويلة عريضة ، على حد ما كان يقول ابن سينا ، وهو : اللهم إنى لا أسألك حياة طويلة ، بل حياة عريضة .

ثم تمنى حضرته للمحتفل بهم صحة وافرة ، وحياة هنيئة .

٥٥٥

ثم قام الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، أستاذ الأدب بدار العلوم ، فألقى الكلمة الآتية :

رأيت من بعض إخوانى ميلا إلى أن ألقى فى هذه الحفلة الأخوية كلمة ، فلم أجد بُدًّا من تلبية الطلب ، وإنى لأرجو أن أكون ترجماناً صادقاً ، معبراً عن عواطفهم وشعورهم ، ولسانا ناطقاً بما تكنه أنفسهم ، فأقول :

ودّعتْ دار العلوم فى سنوات متفرقة مضت ، كثيرا من أساتذتنا الذين أدوا حقوقها المجيدة بها ، وشكرت لهم حميد سعيهم ، وحسن بلائهم ، وعظيم إخلاصهم ، ولكن لا أذكر أن اتفق فى حياتها الدراسية الطويلة ـ على وفرة نتاجها ، وجليل ثمراتها ـ أن ودعت مرة واحدة أعلاما ثلاثة ، سعد عام واحد مولدهم ثلاثتهم جميعا فيه . بل إن دار العلوم لتودع اليوم من أساتذتها الكرام أقانيم قدسية ثلاثة يؤلفون مثلثا تساوت أضلاعه فتساوت زواياه ، ثم تحول إلى دائرة منتظمة لا يدرى أين طرفاها ، فأفضلهم : الأستاذ الجليل أحمد التونى ، لا بل

أفضلهم: الأستاذ العظيم محمود البطراوى ، لا . بل أفضلهم: الأستاذ النبيل على حسنين عبد الوهاب الأسيوطى ، لا بل كلهم أفضلهم وخيرهم جميعهم - وقد يعترضون على بأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه ، وبأن الشيء لا يفضل على نفسه ، فأقول : إنهم كل واحد وحدة ملتئمة ، كل فرد منهم بعضها ، وإن فى كل منهم مزايا شتى ، ومناقب مختلفة ، ومآثر جمة ، يختلف معها الاعتبار فيصح التفضيل .

من تلق منهم تقل : لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

نعم أيها السادة اليوم وفىّ دينه لداخل دار العلوم ثلاثة من أكرم أبنائها عليها ، وأكثرهم برًّا بها ، وأشدهم غيرة على رفيع منزلتها ، وحرصا على المزيد من تقدمها ونهضتها ، وعملا على ما يسمو بقدرها ويعلى شأنها ، حتى يبلغ السماء مجدها وسناؤها ، وما منهم إلا من هو فى هيكلها الأعظم بناء متين الأركان ، محكم البنيان ، موثق الأساس ، قوى الدعامة . وكأنى بها تنشد نفسها ، فى أسف تمازجه غبطة وابتسامة عذبة تشوبها لوعة :

ولو كان أمرى واحدا لاحتملته ولكنه فرد ، وثان ، وثالث .

وستشعر دار العلوم بهذا الفراغ الذى يخلفونه . فيطول جهدها حتى تملأه ، وستحس حاجتها شديدة إلى سد تلك الثغرة . وبناء هذه الفرجة ، وإن كان يهون وجدها من توديعها إياهم ، أن قلوبهم معها ، وميلهم اليها ، وأن آثار مجهودهم لا تزال ماثلة بها ، وأنهم يمدونها ، بروح من عندهم ، وأنهم يستقبلون فى الحياة الجديدة ، الحرة المديدة ، الهنيئة السعيدة ، الطيبة الرغيدة ، عهدا حرا ، سيطول باذن الله أمده ، ويكثره خيره ومدده ، ويتضاعف بره ورفده ، ويستأنفون حياة راضية ، حرة طليقة من كل قيد ، يملكون بها الترفيه عن أنفسهم ، ومنحها حظا من الراحة المجدية ، تستجم فيها القوى ؛ لمواصلة ما ألفوه من العمل فى خدمة الأمة ، بل فى نفع المجتمع العام . فلا يزال فيهم ، مع حكمة الشيوخ ومعرفتهم ، نشاط الشباب وحماستهم ، ومع عقول الكبار وتجاربهم ، قدرة الفتيان وطموحهم ، وكل منهم ممتع بعقل ناضج قوى ، وقلب نابض فتى ، وصحة نرجو الله أن يسبغ عليهم بردها ضافى الذيول ، سابغ الأطراف ، وأن يرفلوا فى حللها مرنحة الأعطاف ،

ولكل منهم ثقة عظيمة بالنفس، متينة العرى، قامت على أساس رصين من الخلق الكريم، والعقل الحكيم، والدين القويم، ومن إجماع العارفين على فضلهم وتقدمهم، وقدر كرام الناس إياهم حق قدرهم، وسيضيفون إلى سجل عمرهم الصالح الخالد، الذى ازدانت صفحاته بجلائل الأعمال، وعظيم الآثار، صحائف مجد أخرى كثيرة، يخدمون بها فى حرية تامة، وانطلاق من قيود الوظائف، وطنهم الكريم ومعهدهم العزيز، ودينهم القويم، ولغته الشريفة، بما يعهده الناس فيهم: من علم جم، وذكاء نادر، وأدب غزير، ودين متين، وخلق عظيم، وتجربة حكيمة، وخبرة عليمة، وإخلاص يزين كل عمل، ويثمر به كل جهد.

هذا: ولقد بدا لى أن أشبه كل واحد منهم بمن يناسبه من فحول السلف الصالح الأقدمين، وأساطين العلوم والمعارف الماضين، فتنازع الأستاذ النونى جماعة من أكابرهم عجبت أن كان جميعهم من أبناء فارس، أبوا إلا أن يكون هذا المصرى العربى خلاصة طائفة نجيبة منهم، أو مزيجا صالحا مؤلفا من عناصرهم، وهم: شيخ اللغة سيبويه عمرو بن عثمان. والإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وفخر الدين الرازى، وجار الله الزمخشرى، والرئيس العليم أبو على بن سينا، والأستاذ الرئيس ابن العميد، فسلمت لهم وقلت: كرامة ونعمى عين، لو تعلق العلم بأهداب الثريا لتناوله رجال من فارس. وأما الأستاذ البطراوى فاتفق عليه العجم والعرب، كما اجتمع فيه العلم والأدب، وألف بين الدين السمح، والفكاهة الحلوة، والطرب، فكان أستاذ الأساتذة: الخليل بن أحمد، وأحد الحمادين: حماد الراوية أو حماد عجرد؛ يمتزج معهم الفراء والكسائى، ويضرب معهم بسهم الأدب والرواية أبو الفرج الأصفهانى، يتمم جماعتهم أبو نصر الفارابى. وأما الأستاذ على حسنين عبد الوهاب فبخ بخ ... شيخ اللغة والدين، وبقية الأئمة المجتهدين، يأخذ العلم والأدب والدين عن سائر الناس، ولم يبال باختلاف الطوائف والأجناس، فهو أبو موسى الأشعرى، ولكن فى تقوى حذرة، ودين ذى حنكة وحيطة، يضم إليه الإمام الورع أحمد بن حنبل، والراوية الثقة التقى، عبد الملك بن قريب الأصمعى، وأبو العتاهية، يقومه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى، يضاف إلى جماعتهم عبد القادر الجرجانى،

والقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، ثم هو بعد ذلك الجلال السيوطى . تلك ظواهر عجيبة تعز على التحليل ، وتستغنى بنصوع أدلتها وبالغ حجتها عن التدليل . عاشرت ثلاثتهم عشرة طالت وطابت ، فأحمدت العشرة ، وأكبرت الفائدة ، وأعظمت الثمرة ، ووجدت من إخوانى كلهم إجماعا على رجحانهم ، واتفاقا على فضلهم ، وثلاثتهم مثلى يخضرمون طويلا ، عاشروا بدار العلوم كثيرا من نظارها الكرام ، الذين تبوءوا الدار والإيمان ، وازدهى بهم ظرفا المكان والزمان ، فخدموها بسديد آرائهم ، وعظيم خبرتهم وحكمتهم . وأجمعوا على حسن الثقة بأساتذة اليوم والإشادة بفضلهم ، جزاهم الله خير الجزاء ، وجزاء الخير .

ولقد كان من يمن الطالع ، وسعد الفأل ، وحسن الحظ ، أن كان يومنا المبارك هذا فى عهد ناظرها الحالى : ذلكم الرجل الكامل ، والهمام الألمعى ، والقادة الخبير ، المصفى من أطيب عنصر (وأصدق جوهرة) وفى وزارة الأمة الشعبية المحبوبة ، المؤيدة بإجماع الثقة التامة ، والتى نالت مصر فى عهدها السعيد ، ما كانت تجاهد له ، وتسمو إلى الحصول عليه ، فى ظل جلالة الملك المحبوب ، زين الشباب ، وقرة عين مصر ، الذى حل كل قلب ، ودان بولائه كل نسمة من الشعب ، وحسب دار العلوم بهذا كله قوة وعونا : تستمر بهما سائرة قدما . ظاهرة على الحق ، مؤدية رسالتها على أكمل وجه ، فإنه كلما تقدمت الأمة فى العلوم والمعارف ، واتسعت دائرة ثقافتها ، وارتقت آدابها وأفكارها ، زاد شعورها بالحاجة الملحة إلى هذا المعهد الكريم ، الذى فيه تحيا لغة الكتاب العزيز ، والمدرسة التى بارك الله فى حياتها ، فأمدت الأمة بالمحامين الأكفاء . وتخرج فيها من ولوا الأعمال المختلفة ، فأبانوا عن كفاية وغناء ، والذين نهضوا باللغة ، وأقالوها من عثرتها ، وأخذوا بضبعيها ، وأشرفوا بها على اليفاع ، وجاهدوا بكل قوة ما كان فاشيا فيها من ضعف ، وبذلوا فى خدمتها ثمين وقتهم ، وكان لهم من عظيم الخبرة ، وقوة المعرفة ، ومن اضطلاعهم بالأدب العربى : قديمه وحديثه ، وتمكنهم من الوسائل القوية التى تنهض بها اللغة وآدابها وعلومها ، ومن إحاطتهم خبرا بأسرار اللغة وبلاغتها ، ووقوفهم التام على مناحى القول فيها ، ومن القدرة الكافية على تفهم الأدب العربى البليغ فى كل

عصوره ، وعلى الانتفاع به وتعريف الناس قيمته ، ومن تتبعهم لحركات الأدب الحديث ، ووقوفهم على أطواره ، ومن إلمامهم بالقدر الصالح من المعارف والعلوم التى لا بد منها فى حذق الأدب ، وجعله مفيداً مثمرا ـ ما أتاح لهم أن يسايروا الثقافات الجديدة القويمة ، وأن يكونوا فى طليعة الأمة مسايرة للزمان ، وعلما بحاجاته ، وتقدما فى الثقافة العربية المصرية خاصة ، والثقافة العامة عامة ، وقياما على الأدب وتوجيها له الوجهة النافعة ، وذيادا عن اللغة ، وصدا لغارات أعدائها عنها ، ولها من نصر الله أكبر معين ، وأعز ناصر . ومن الثقة بحضرة صاحب المعالى وزير المعارف الجليل ، ووكيله حضرة صاحب العزة الأستاذ الأديب نعم الوكيل ، ما تتم به "لأمة" الجهاد ، وتكمل به العدة والعتاد ، فتفرغ إلى إمداد الشعب بما تشتد حاجته اليه من أدب حى راق صالح ، لا يرتضخ لكنة ، ولا يتعثر فى منة . فيغذى العقول والأفكار ، وينمى الملكات ، وعساها تقوى على عوامل أخرى ، ليس أمرها بأيدى أبنائها ، إذن تكون آثار جهادهم فى هذه الناحية الشريفة أقوى وأكثر ، وثمار كدهم وجهدهم أحسن وأطيب ، إن شاء الله . ولا يفوتنى قبل ختام كلمتى ، أن أقدم جزيل الشكر ، لحضرات السادة الذين شرفونا بإجابة الدعوة ، وانتظم بهم عقد الحفلة ، وأن أخص بالشكر الجزيل ، والثناء الجميل ، حضرة صاحب العزة محمد فهيم بك ، عميد أصدقائنا وإخواننا البررة ، الكرام الخيرة ، نضر الله وجوههم ، وشكر لهم صالح سعيهم . ثم أقول : هنيئاً للفرسان الثلاثة أن سبقوا إخوانهم مجلين ، وأن فاقوا فى الميدان أقرانهم مبرزين ، وهنيئاً لهم ما خلفوه : من أثر يضوع ولا يضيع ، وجهد خصب مريع ، وذكر جميل يطيب نشره ، وثناء يتأرج شذاه وعطره ، وسعى مشكور ، طوقوا به جيد المعارف قلائد منن ، لا يفكها الملوان ، وبلاء حسن دون لهم سفراً خالدا لا يزال يتلوه لسان الزمان . والله تعالى ، وكرام خلقه ، يشكرون لهم ما أسدوه من مبرات ، ومن أياد غر كانت بها أيامنا مشرقات منيرات . والعاقبة عندنا إن شاء الله تعالى فى المسرات .

* * *

ثم قام الأستاذ عبد المغنى المنشاوى الأستاذ بدار العلوم فألقى القصيدة الرائعة الآتية :

قصيدة الأستاذ عبد المغنى المنشاوى

المدرس بدار العلوم

دارَ العلوم ودارةَ الأخيار ... حيِّ حياةَ ثلاثةِ الأقمارِ
أطلعتهم شرخَ الشبابِ أهلّةً ... فسَرَوْا بدوراً غيرَ ذاتِ سِرارِ
خلعتْ على الوادى سناً ومعارفاً ... باتا هُدَى الأبصارِ والأفكارِ
نُورُ السماء يشعُّ فى نورِ الرُّبَى ... ما أروعَ الأنوارَ فى الأنوارِ!
أرأيتِ قبلهمُ بدوراً أزمعتْ ... فى ليلها الأسفارَ فى الأسفارِ
باتت تُصَمِّدُ فى سماء بيانها ... حتى تبدَّى الليلَ صَحْوَ نهارِ
فسلوا أشعَّتَها نُشِرْنَ حبائلاً ... أأتتْ بدرٍ، أمْ أتتْ بدَرارى؟
حتى إذا ولَّى السُّرَى حمِدُوا السُّرَى ... ومَضَوْا لدرسٍ مُعْنِتٍ جبّارِ
الليل يطويه اقتناص شواردٍ ... واليوم ينشره كِفاح حِوارِ
يانافِسِينَ على المعلمِ حظّه ... حظُّ المعلم جنّةٌ فى نارِ
الفارس المِغوار يَقصُرُ جهده ... عَنْ تضحياتِ معلمٍ مِغوارِ:
فأداة هذا سيفه، وأداة ذا ... كَدُّ النُّهَى والسَّمْعِ والأبصارِ
قتَلَ المعلمُ نفسه بوفائه ... وبما يرَى فى نَعيِهِ من عارِ
بسوادِ عينيه يخط صحائفاً ... شَرفَتْ بهنّ صحائف الأبرار
إجزوه بعضَ جزائه؛ فمقصِّرٌ ... مَنْ يجز بذل الرُّوحِ بالدينار
من يعجز الثقلان عَنْ إنصافه ... ينصفه عدل الواحد القهّار

٭٭٭

زفُّوا تهانيكم إلى من ملّكوا ... بحبوحة الإطلاق بعد إسار
قد بدّلوا عيشاً رزيناً خافضاً ... من عيش لا أمن ولا استقرار
أولى بتهنئة صحاح بلّغوا ... رغم الجلاد رحابة الأعمار
عيشوا مع الستّين أخرى غيرها ... فى غير ما همّ ولا أكدار
واستقبلوا فى كلّ يوم بهجة ... فزمانكم آذار فى آذار
وتذاكروا معنى الحياة رضيّة ... وانسوا شروط النّمت والإخبار
ودعوا لنا عيش الوظيفة إنّه ... قيد العقول وربقة الأحرار
هنّوا الموظّف لو يفوز بجلده ... إنّ الوظيفة داؤه المتوارى

ثم تعاقب المحتفل بهم فارتجلوا من رصين القول ما عبر عن صادق وجدانهم، وعظيم إخلاصهم لدار العلوم ورجالها ، وشكروا للحاضرين حفاوتهم بهم ، وتمنوا لهم أطيب الأمانى .

° ° °

وإن جماعة دار العلوم ، وناديها ، وصحيفتها ، لتقدم للأساتذة الثلاثة عظيم إجلالها وخالص تهنئتها ، على ما اتصفوا به من مآثر . جمعت القلوب على مودتهم ، وأطلقت الألسنة بالثناء عليهم ، وترجو لهم حياة ناعمة مليئة بالخير وجليل الأعمال .

في الأدب القصصي

المخطـــوفة

بقلم إسماعيل العربي
المدرس بدار سويف الثانوية

الفصل الأول

الزوجة

كان حمدان فتى من فتيان تلمسان (إحدى بلاد المغرب) مات أبواه صغيراً. فنشأ في أحضان البؤس، ودرج من حجر الفاقة. ودخل مدرسة الدهر. وهو غض الإهاب. وبدأ يعمل بأجر زهيد ولكنه شب مفتول الذراعين، قوى الساعدين، قد وهب له الله بسطة في جسمه، ورجحاناً في عقله؛ فراح يجالد بهما الحياة، ويكافح الدهر، ويدأب في العمل. وأخذ يدخر من أجره ما زاد عن حاجته.

مضت أعوام تلو أعوام، حتى بلغ حمدان مبلغ الرجال، وصار بشراً سوياً؛ ففكر أن يغير مجرى حياته. ويتخذ له زوجة تشاطره الحياة: تشاركه في النعماء، وتواسيه في البأساء. ويسكن إليها وقت فراغه. وتشد أزره في أعماله، وتجدد ما أخلقه الدهر من قوته، ويملأ بحبها قلبه. ويطرد بها شبح الوحدة، وتنجب له من البنين والبنات من تقر بهم عيناه، ويخف بهم عناه، وتخلد ذكراه.

أكد عزمه؛ فأخذ يرسل سمعه وبصره. وراء فتيات قريته، اللاتي من طبقته. حتى أعجب بواحدة منهن. امتازت بأسل الخد، واعتدال القد، وخلق كريم. وقلب سليم؛ فتقدم إلى ذويها خاطباً، فأجابوه إلى سؤاله، وزفت إليه زينب، وانتقلت إلى كوخه. فوجد فيها أمله. وأفرغ عليها حبه. وابتسمت لهما الحياة. ورفرفت عليهما السعادة، وامتزجت نفساهما وصارا كلاً بقاؤه

فى التركيب ، وعدمه فى الانفصام ، وتولد من هذا المركب جزئ أصبح مركز الدائرة ، وقطب المغناطيس ، وأثمرت شجرة الحب ثمراً شهياً طالما اشتاقا إليه ، وبزغ فى كوخهما كوكب طالما رصداه ، وولدت عائشة لهما . فكانت السمع والبصر والفؤاد .

ما أقصر أيام الصفاء وإن طالت ! نعم فقد عاد حمدان مثقل الرأس ، فاتر الطرف ؛ فهرعت إليه زينب فى لهفة تسأله : مابك ؟ فأجابها : ألم خفيف شعرت به . فهدت له وطاءه ، واستلقى عليه ، وبسطت فوقه غطاءه ، ثم جلست تتنبأ وتسأل عن سبب ألمه ؛ فتقول : لعله البرد لم تأخذه منه حذرك ، أو لعله التعب مما أجهدت به نفسك ، وعما قليل تذهبه الراحة ، ويغنيه النوم ، ولم يصدق حدسها ؛ فها قد دالت دولة الظلام ، وأسفر الصبح ، وحمدان يتململ من الحمى ، وقد سرت فى جسمه سريان النار فى الهشيم ؛ فسقط فى يدها ، وتسرب الخوف إلى فؤادها ؛ فأخذت تحنو عليه تتحسس موضع الداء ، وتتعرف موطن العلة ؛ فلا تمس إلا ناراً ذاكية ، وجسماً عانياً ؛ فيطبق عليها الفزع . ثم لا تلبث أن تحتمل ابنتها ، وتعرج بها إلى سطح الكوخ ، وتقلب وجهها فى السماء ، ويلهج لسانها بالدعاء : اللهم إن كنت لا أستحق رحمتك ، فارحم هذه المسكينة التى لم تسىء بيد ولا لسن ولا إضمار ، ولا تذقها حرارة اليتم إنك رءوف رحيم . ثم تنقلب باكية حتى إذا أطفأت جمرة حزنها - بل زادتها اتقاداً بدموعها

أجدر بجمرة لوعة إطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

- عادت إلى حمدان ، وجلست بجواره لا حول لها ولا قوة ، إلا أن ترسل كلمات ترفه عنه ، وتذكر له أن الشفاء منه جد قريب .

مرت أيام ذاق فيها من صنوف الآلام ، وقاسى من سورة الحمى ، ما نهك جسمه ، وعرق عظمه ، وضعف عن احتماله . فأسلم الروح إلى بارئها ، واحتواه الرمس ؛ ومضى كأن لم يكن بالأمس .

لك أن تبكى يا زينب ما تشائين ، وأن تسكبى على قبره دمعك السخين .

فابكى بمحمر الدموع وإنما تبكى العيون نظيرها بنضار

واتذن سوء الحظ ونكد الطالع ، فقد اختطف الموت عمادك فى الحياة ، وجنبك من الكوارث، وحافظ وجهك أن يريق ماء السؤال ، أو التكسب بوضيع الأعمال .

اللهم لا راد لقضائك ، ولا معقب لحكمك ، ولا رحمة تدانى رحمتك ، فقد حرمت زينب عائلها وسندها فى الحياة ، وفجعتها فى أعز مخلوق عليها . ولكنك منحتها صبراً جميلا ، وعزاء بتلك الريحانة التى أخذت تنمو وتترعرع . فكانت سلواها وأملها ، فاستأنفت حياة الرضاء والتسليم ، وخرجت تعمل فى دور الأغنياء . ومضت السنون ، فكبرت عائشة وجاوزت عامها السابع ، فرأت الأم أن تتخذها عوناً لها ، فألحقتها بخدمة أسرة صالحة فى المدينة . وكانتا إذا أرخى الليل سدوله تعودان إلى كوخهما ، فتنعم الأم بقرب ابنتها ، وتتجاذبان الحديث . حتى يأخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، فإذا ولى الليل الأدبار قامتا إلى عملهما ، وعادتا إلى سيرتهما الأولى .

الفصل الثانى

الوحش الإنسانى

على بعد أميال من تلمسان أخبية متناثرة ، تخالها إبلا حل بها الإعياء ، فأناخت فى البيداء . سكنها جماعة من الأعراب ؛ لا يعرفون من الدين إلا اسمه ، ولا غرو ؛ إنهم أبناء الصحراء قد خلعت عليهم جفافها ، وأورثتهم خشونتها ، وصاغت قلوبهم من حجارتها .

كان من عادة هؤلاء القوم أن يفدوا إلى المدينة ، حاملين صوف أغنامهم ، أو ما حاكته نساؤهم ، ليبيعوه فى أسواقها ، وليشتروا ما قدروا عليه من خيراتها ، فإن أعجب أحدهم بما لم يستطع له شراء أخذه خلسة أو غصباً (والأمن فى هذه البلاد قد اضطرب ، والحق فيها لمن غلب) وكان من بينهم رجل يدعى سالما قد لبس جلد النمر ، وخلق من غير قلب ، وعاث فى الأرض فسادا ، فكم أدمى من قلوب ، وفتت من أكباد ، وقرح من جفون . وفرق بين الولد وأبيه ، أو فصيلته التى تؤويه ، بخطفه وبيعه ؛ فقد كان يفد إلى المدينة ويسير فى الطرقات ،

حتى إذا عن له صيد (وما صيده إلا البنون والبنات) نصب له شراكه. وألقى عليه حبائله حتى يفوز به، فينقلب إلى أهله مسرورا.

بينما هو فى إحدى جولاته، وقد خرجت عائشة مولية وجهها شطر الكوخ، تسير فرحة طروبا؛ تعلل نفسها بقرب لقاء أمها، فتثب من ناحية إلى أخرى وثبات العصفور المرح من غصن إلى غصن، فى يوم من أيام الربيع الساحرة — إذ رآها سليم، فتنبهت فيه غريزة الشر، ووجد فيها بضاعة غير مزجاة، ففكر ثم قدر، واستنبط الحيلة. وأعد عدته، ورسم خطته، فمشى عن كثب منها حتى عرف اسمها. ثم تقدم إليها وأخبرها أن أمها فى زيارة لأهله، وقد طلبت منه أن يحضر لها عائشة، وتلافريته بالحلوى قدمها إليها. فانخدعت المسكينة بقوله، ورأت ظاهره فيه الرحمة، ولم تدر أن باطنه من قبله العذاب، ومضت معه، وقد جذبها بعذب حديثه، واستمالها بحلواه، إلى أن دنا من الصحراء، فتلفت حوله خائفاً يترقب، ولم يلبث أن عاد إليه أمنه لما رأى الطريق خالية، وانقض عليها واحتملها، وكتم فاها. وعرفت منه الغدر وسوء القصد، فصارت تتلوى بين يديه، كما يتلوى الفرخ ينزع من عش أبويه، ولكنه أحاطها بذراعيه، وهددها إن لم تسكن إليه؛ فسكن جسمها، وتحركت عيناها، وانتحبت نحيب اليائس من الخلاص، وبكت بكاء المسافر لم يجد من فراق أهله المناص، ثم أنزلها تسير، فأسلست له القياد فزعا، وأعطته الزمام كرهاً، حتى وصل إلى خبائه، وقد نال منهما التعب، وأعياهما المسير، فأمرها أن تنام فأطاعت، ولكن النوم لم يجد إلى عينيها سبيلا. فباتت ساهدة الطرف، شاردة اللب.

ولما سل سيف الفجر من غمد الدجى نهضت من مرقدها، فألفته يعد راحلته، ويهيىء زاده، فارتاعت وهوت على يده لثما وتقبيلا، وتضرعت إليه أن يعيد إليها حريتها، ويردها إلى أمها. فما كان جوابه إلا أن لطم خدها، وتوعدها بالمزيد إن لم تعدل عن البكاء.

لك الويل من وغد أثيم، ولص لئيم. ألم تأخذك شفقة بهذه الصغيرة، ولم يلن لها قلبك، فكان كالحجارة أو أشد قسوة، «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله».

استخذت المسكينة وانكمشت ، ثم ركب جمله ، وأردفها . وجد فى السير حتى دخل مصر ، ونزل بإحدى قراها ، واتصل بجماعة من سراتها ، قد زين لهم ماهم فيه من جاه ونعمة أن يردوا الحُرة قِنّا ، فعرض عليهم عائشة ، فاشتروها بثمن بخس دراهم معدودات ، وتركها بينهم لا يلوى على شىء ، وسار حتى ابتلعته الصحراء .

أما هى فقد تنفست الصعداء ؛ لما خلصت من البقاء فى كنف ذلك الأعرابى ، وأدركت أن بعض الشر أهون من بعض ، ومكثت بين ظهرانيهم أياما ، ثم أهداها كبيرهم إلى صديق له فى القاهرة ، فوجدت فى منزله بعض العزاء .

الفصل الثالث

القلب المحطم

انتظرت زينب سويداء قلبها ، وفلذة كبدها ، فلم تعد (وليس ذلك من عادتها) فاضطربت ، وجرت إلى البيت الذى تشتغل فيه عائشة فلم تجدها ، فهامت على وجهها فى الطرقات ، تسأل الغادى والرائح عنها ، فلم تقف لها على أثر ، فلما أعياها المطاف عادت أدراجها ، والوساوس ملء فؤادها ، ودخلت كوخها ، تسأل جدرانه ، وتستنطق حيطانه ، علها ترشدها إلى عائشة ، وهيهات هيهات ، فقد فر الذئب بالحمل ، وخرج به وثوب الليل مسدول .

قضت ليلة نابغية ، لم تأو فيها إلى مضجع ، ولم يرقأ لها مدمع ، وأخذ الوهم يصور لها عائشة فى صور شتى ، فتارة تظنها قادمة إليها ، فتفتح ذراعيها لتضمها ، وما تضم إلا الأمل الضائع ، واليأس اللاذع . وتارة تزعم أنها تناديها من وراء الباب ، فتذهب إليه ، وترسل بصرها من خصاصه ، وتحبس أنفاسها ، فلا ترى إلا الخيبة ماثلة أمامها ، ولا تسمع إلا دقات قلبها . وطورا تتوهم أن ليثا قد انقض عليها ، وحملها إلى الجبل ، وأنشب فيها مخالبه ، فيهلع لذلك فؤادها ، وتتمزق أحشاؤها .

ما أطول ليلك يا زينب ! ما للصبح لم يتنفس ؟ أضل طريقه ؟ أم حبس عن الدنيا كما حبست عن عائشة ؟ بمثل ذلك كانت تحدث نفسها . فلما أخذ الفجر ينشر أعلامه ، وبدأ الليل يطوى صحفه ، ويخفى لآلئه فى أصداف السماء . وامحت

آيته ، وظهرت آية النهار مبصرة ـ عاود زينب أملها فى العثور على ابنتها ؛ فخرجت إلى السبل باحثة معولة ، فلم تترك بيتاً إلا طرقته ، ولا مارا إلا استوقفته ، وما زالت تنتقل من حلة إلى حلة ، وتميل ذات اليمين وذات الشمال ، حتى مال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، فانحدرت هى إلى كوخها ، وقد قر فى نفسها أن عائشة لن تعود إليها .

لقد تجرعت زينب كأس الحزن حتى ثمالتها ، وتقرحت من طول البكاء جفونها ، وتفتت كبدها ، وتيقظ حزنها القديم ، وغدت مهيضة الجناح ، مكلومة الفؤاد ، ترى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، فانتهبتها الأمراض ، وأصبحت كخيال سار لولا أنينها ما تبينتها .

كانت لها جارة طيبة القلب ، عرفت أمرها ، ووقفت على ما أصابها ؛ فأخذت تواسيها ، وتوثرها على نفسها ، فتقدم إليها بعض ما هى فى حاجة إليه ، ولكن زينب لم تطب لها الإقامة فى تلك الديار ، التى أذاقتها لباس الجوع والخوف ، وسقتها من كئوس العذاب ألوانا ؛ فعزمت على الرحيل منها ، عسى أن تجد فى الأرض التى تهبط فيها بردا وسلاما ، يطفىء نار أحشائها ، أو يخفف من لواعج أحزانها ؛ فخرجت مبكرة إلى فج من فجاج الصحراء ، فوجدت قافلة تتأهب للمسير ، وتبغى وادى النيل . فتفرست فى وجوه القوم ، حتى وقع نظرها على رجل توسمت فيه البر ، وتوقعت منه الخير ، فتوسلت إليه أن يحملها معه إلى وجهته ، فيقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له . فرق الرجل لحالها ، وأركبها راحلته ، وسارت سفن الصحراء باسم الله مجريها ومرساها .

الفصل الرابع

اللقاء

هبطت زينب أرض مصر ، وألقت عصاها ، واستقر بها النوى فى القاهرة ، وأخذت تستجدى الناس ، وتستندى الأكف ، ولكنها لم تكن بارعة فى حرفتها الجديدة ؛ فراحت تبحث لها عن عمل يشبه عملها الأول ، فوفقت إلى أسرة كريمة

قد أسبغ الله عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، وحباها الخير العميم ، وجملها بالخلق القويم ، وقد أخلصت زينب فى خدمتهم ؛ فكافئوها بالحسنى وزيادة ، وعاملوها معاملة الولى الحميم . ولولا وخزات الأسى التى تمز فى قلبها لفراق ابنتها ، من غير أن تعرف لها مستقرا أو مقاما - لأحست ذلك النعيم ، الذى تتقلب فى أعطافه ، ولابتسمت لتلك الحياة الجديدة . ولكنها مازالت تذكر عائشة ، وتذرف الدمع مدرارا ، كلما خلت بنفسها .

ومر على مقدمها عام ، ولم يندمل جرح فؤادها ، ولم ينضب معين دموعها !

فى ذات يوم خرجت زينب لبعض شأنها ، فرأت فى الشارع فتاة زعمتها عائشة ؛ فخفق فؤادها ، وهرولت نحوها ، فلما دنت منها تبدل شكها يقينا ، فهتفت باسمها ، فجفلت عائشة ، ثم عرفت الصوت بعد نكر ، فطفرت إلى أمها وارتمت بين أحضانها ؛ فلو شهدتهما لرأيت جسمين اتحدا ، ولسمعت قلبين خفقا ، وثغرين نطقا بالقبل : ووجدت عيونا فاضت بدموع الفرح ، يا له من منظر ساحر ، يعجز عن تصويره أمهر المصورين !

لم تقو الأم على احتمال هذا السرور الذى باغتها . وأفعم قلبها ، فخرت مغشياً عليها ، ثم أفاقت من غشيتها ، وأخذت بيد ابنتها ، وسارت معها إلى الأسرة التى آوتها ، فلما رأوها مشرقة الوجه ، وضاحة الجبين ، بسامة الثغر ، على غير عادتها ، ومعها فتاة لا عهد لهم بها - أخذ منهم العجب كل مأخذ ، وتهافتوا عليها ، وأغراهم حب الاطلاع أن يسألوها ، فأجابت : إن هذه ابنتها عائشة ، وقد عثرت عليها ، فسألوا : ما خطبك يا عائشة ؟ قالت : خطفنى رجل من الأشقياء ، وخرج بى إلى الصحراء ، ودخلنا بلاد النيل وباعنى من أحد الأثرياء ، فضمنى إلى خدمه ، ثم وهبنى لصاحب له وعطفت على زوجته ، وعاملتنى معاملة حسنة ، فسكنت إليها ، ولكن لم أفتر عن ذكراك يا أماه . فهنأ الجميع زينب ، وأبوا إلا أن يجعلوا من هذا اللقاء عيداً ، فهيئوا وليمة عشاء ، ودعوا إليها الأصدقاء ، وسطروا على باب المنزل بحروف وهاجة الضياء :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا ؟